

٣ - حول انهيار فرنسا

لأستاذ عربي كبير

تمة ما نشر في المدين السابقين

—>>><<<—

هذا ، وفي آخر الأمر يجب علينا أن نشير - حيثما بحث عن أسباب انهيار فرنسا - إلى سبب آخر ، سبب يجب أن يعطى الموقع الأول بين سلسلة الأسباب ، بل يجب أن يعتبر السبب الأصلي ، بل هو علة العلل ...

هذا السبب هو علائم بلبلة الآراء وفوضى النزعات التي كانت تسود فرنسا إزاء مظاهر وحدة الكلمة وتراص الصفوف التي كانت تميز ألمانيا ...

لقد دخلت ألمانيا الحرب ، وهي متحدة الكلمة ، تسيروا زعيم واحد تنق به ثقة لا حد لها ، وتنتج نحو هدف عام يعرفه الكل ويقده الجميع ... في حين أن فرنسا كانت منقسمة على نفسها في معظم أمورها ، وقد بلغت فيها الشبهوات الحزبية درجة تكاد تنقلب على الفكرة الوطنية ، وتعددت الأحزاب تعدداً لا مثيل له في التاريخ ، فلم يبق حزب قوى يستطيع أن يضم الأكتريه ويدعم الحكومة ، حتى بالاتفاق مع حزب ثان ، فأصبح من الحتم على كل حكومة تسمى إلى تسيير دفة الأمور أن تتفنن في إجراء ترتيبات معقدة بين عدة أحزاب متخالفة ...

وبما أن مثل هذه الترتيبات المعقدة تكون عرضة للتغيير السريع بتقلب الظروف ، أصبح التوازن الحكومي شبيهاً بالأعمال البهلوانية التي يقوم بها اللاعبون على الحبال ولا حاجة لبيان أن تعدد الأحزاب وتنازعها على هذا الوجه كان يفسح مجالاً واسعاً لدسائس النفيين ، ويزعزع ثقة الشعب بالحكومات ويؤدى إلى سمعتها إلى حد كبير

وإذا كان تسيير دفة الشؤون بين هذه النزعات المتخالفة من الأمور الممكنة في الأحوال الاعتيادية فلا شك في أنه يصبح من رابع التحليلات خلال الأزمات الحزبية ، لأن الحرب تحتاج إلى أعمال منسقة تنسيقاً تاماً ، ولا سيما في هذا العهد الذي أصبحت

فيه الأعمال الحزبية غير مقتصرة على الجيوش المحاربة وحدها وغير منحصرة في ساحات القتال وحدها ، بل شاملة جميع أبناء الوطن وجميع أقسام البلاد ... فالبلبة في الآراء والفوضى في الأعمال من الأمور التي لا يمكن أن نلتئم مع ضرورات الحرب بوجه من الوجوه ، فإذا أقدمت أمة ما على الحرب وهي مبلبة الآراء ، فلا بد من أن تتعرض إلى كوارث ونكبات

وهذا ما حدث فعلاً في فرنسا ، لأن البلبلة التي كانت تضطرب في نفوس أبنائها حين بدء الحرب ، ازدادت يوماً فيوماً من جراء سير الوقائع من جهة وبتأثير إذاعات الألمان من جهة أخرى ، ولا شك في أنها كانت علة العلل في أمر الانهيار

* * *

وهنا مسألة هامة تتطلب التفكير والاهتمام :

إن تعدد الأحزاب وبلبة الآراء لم تكن من الأمور الشاذة في فرنسا ، بل هي من الأمراض الاجتماعية المزمنة التي كانت تنخر عظم فرنسا منذ مدة غير يسيرة ، ومع هذا فأبها لم تؤد في الماضي إلى انكسار وانهيار ، لأن الأحزاب كانت تبتدع عادة منازعاتها عند ما تشعر بالخطر الخارجي ، وتسرع إلى الاتحاد والتكتل عند ما يدعوها إلى ذلك داعي الوطن ، كما حدث فعلاً في الحرب العالمية

فلماذا لم يحدث مثل ذلك في هذه المرة ؟ لماذا لم تتحد الأحزاب أمام الخطر الهائل الذي أحرق بفرنسا منذ نشوء الحرب الحالية ؟ لا شك في أن ذلك لا يمكن أن يعطى إلا بأن نقول : إن داء الحزبية كان قد اشتد إلى درجة أصبح معها لا يتأثر من ضرورات الحرب ، وإن روح الفردية كانت قد قويت إلى درجة تحولت معها إلى أنانية مفرطة تنقلب على الروح الاجتماعية والروح الوطنية . غير أن هذا التعليل لا يحل المسألة حلاً مرضياً ، فيجب علينا أن نساءل بعد هذا التعليل أيضاً : لماذا اشتدت روح الحزبية إلى هذه الدرجة ، ولماذا تقوت فكرة الفردية إلى هذا الحد ؟

إنني أعتقد أن الدعايات الشديدة المستمرة التي قامت في طول فرنسا وعرضها منذ سنوات ضد النظام النازي والفاشي لم تحل من التأثير الشديد في هذا الباب . إن تلك الدعايات كانت تستهدف - في حقيقة الأمر - تبغيض ألمانيا وإيطاليا ، غير

ولذلك استمرت في فرنسا الأمراض والنزعات السياسية والأخلاقية النفسية التي شرحتها آفكا ، خلال الحرب أيضاً ... ولا شك في أن هذا الاستمرار كان أهم الأسباب التي أدت إلى الانهيار .

* * *

ومن الغريب أن دعايات « الحرية والفردية » المفرطة التي كانت انتشرت في فرنسا فأدت بها إلى الانهيار كما اسلفنا أثرت تأثيراً عميقاً في آراء عدد غير قليل من كتاب العرب . فراح بعضهم يردد تلك الدعايات بحماس شديد ، حتى بعد ظهور أضرارها الفادحة للعيان في الولايات والنكبات التي جبرتها على فرنسا نفسها ...

فقد نشر أحد الكتاب المشهورين^(١) ، في إحدى المجلات المصرية الشهيرة ، سلسلة مقالات حول فرنسا ، بعد انهيارها ، أبدى فيها من الآراء ما يستوقف النظر ويتطلب النقاش ...

فقد وصف الكاتب المحترم ، في مقالاته هذه « الحالة النفسية التي كانت وصلت إليها فرنسا قبل الحرب الحالية بكلمات صريحة » فكتب - في مجلة ما كتبه في الأقسام المختلفة من مقالاته المذكورة - الكلمات التالية :

« كانت شهوة السياسة الحزبية في فرنسا أقوى من الفكرة الوطنية »

« امتلأ الفرنسي بنفسه ، وأصبح الفرد كل شيء ، يؤثر نفسه بكل شيء ، يؤثرها بأعظم حظ ممكن من اللذة ، ويجنبها أعظم حظ ممكن من الألم ... »

« استجاب الفرنسي لداعي العقل الفردي ، أكثر مما استجاب لداعي العقل الاجتماعي . »

« قد رأى الفرنسي أن الحياة لم تمنح للناس ليبدلوا في الجهود المضنية التي تنهى إلى الفناء ، إنما منحت للناس لتكون عليهم نعمة ليستمتعوا بلذاتها وليتجنبوا آلامها ... »

« فرنسا آثرت نفسها بالعاقة واللذة ونعم الحياة ... » أنا لا آخذ على نفسي مسؤولية هذه الكلمات القاطمة ، ولا أشترك في إطلاقها وتميمها على هذا المتوال . ومع هذا ، أرى من الضروري أن ننم النظر فيها قليلاً ...

(١) الدكتور طه حسين

أنها كانت تهاجم قبل كل شيء النظام الجديد الذي اختارته لنفسها كل واحدة من هاتين الدولتين مهاجمة عنيفة ، وذلك من وجهة تأثيرها على الحرية الفردية في الدرجة الأولى ، ولذلك أخذت الدعايات المذكورة تستمد قوتها من (فكرة الحرية) و (نزع الفردانية) المنتشرة في البلاد ، فصارت تزدري حتى به (روح التكاتف والتراص) و (دعوة التوحد والتضحية) التي يتضمنها هذان النظامان ، فإن الكتاب والخطباء كلما أرادوا تزييف النازية ومهاجمتها لوحوا أمامها بعلم « الحرية المطلقة والفردية التامة » دون أن ينتبهوا إلى التأثيرات والأضرار التي قد يحدتها ذلك في داخلية البلاد ونفسية الناس . على هذا الوجه تقوى الداء وتأصل ، وصار الناس يمجدون « الحرية » تمجيداً مطلقاً ولو أدت إلى الفوضى ، وينفرون من (التوحد) ولو أصبح ضرورياً لحياة الأمة ، ويسترسلون في (الفردية) ولو تحولت إلى أنانية فتاكة ... وفي الواقع أن مخاطر هذه الأمور لم تبق خافية على أنظار جميع الفرنسيين بطبيعة الحال ؛ فقد ظهر بين رجال الفكر والسياسة من شاعر بالأخطار التي ستنتج عن استمرار هذه الأحوال ، ومن أخذ يعارض الإفراط في فكرة الحرية فيدعو إلى جمع الصفوف وتوحيد الكلمة ، حتى ظهر من يحمل بعض الحملات على روح الفردية والأنانية ... غير أن الدعايات التي ذكرناها آنفاً ، كانت أثرت في النفوس تأثيراً عميقاً حتى صار الناس ينظرون إلى كل محاولة من هذا القبيل كضرب من ضروب النازية أو الفاشية ، كما أخذوا يهتمون معتققي مثل هذه الآراء بخدمة الأعداء وخيانة الوطن وعبثاً حاول بعض الكتاب والفكرين أن يرشدوا الناس إلى سواء السبيل بقولهم : « يجب أن نكره النازية من حيث سياستها الخارجية وحدها ، ولم يشمل كرهنا لها جميع أعمالها وجميع خصائصها ... ومهما كرهنا النازية من وجهة سياستها الخارجية فيجب ألا ننكر بأنها قامت بأعمال هامة في سبيل الإصلاحات الداخلية والتنظيمات الشعبية ، وإن بعض تلك الأعمال الداخلية جدير بالإعجاب وحرى بالاعتناء ... » غير أن أصوات هؤلاء الفكرين ضاعت بين صرخات الصارخين الذين ظلوا يهاجمون النازية من جميع الوجوه باسم الحرية ... ويستخفون بجميع مبادئها وأعمالها باسم الفردية ...

« إن الحياة الحرة ... خليفة أن تشتري بأغلى الأثمان ... »
 إن سياق الكلام — في المقالات المذكورة — يدل دلالة صريحة
 على أن التمني هنا هو « كيان الدولة » و « حياة المجتمع » ...
 فهل يجب علينا أن نسلم بهذا القول ؟ هل يجوز لنا أن نقدم
 « الحياة الحرة » على كيان الدولة « وعلى مصالح المجتمع الحيوية » ؟
 وهل يمكننا أن نضحى « الحياة الحرة » بتضحية حياة الدولة
 وكيانها ؟ ...

أنا لا أرى لزوماً لإطالة الحديث في الإجابة على هذه الأسئلة ،
 ومع هذا أرى من المفيد أن أذكر كلمة قالها قبل الحرب العالمية
 أحد عظماء السياسة في فرنسا ، وكلمة أخرى كتبها أحد كبار
 الأدباء ...

في عهد وزارة بريان استمد الاشتراكيون لحل الناس
 على إضراب عام يشمل عمال وموظفي السكك الحديدية ، ليشلوا
 جميع الأعمال والحركات في طول البلاد وعرضها . فلما اطلعت
 الحكومة على أخبار هذه الاستعدادات اعتنقت بأن ذلك قد
 يؤدي إلى كارثة كبرى ، نظراً لما كانت تعرفه عن اعتماد ألمانيا
 نظراً لاحتمال إقدامها على انتهاز فرصة هذا الاضطراب العام
 للاستيلاء على البلاد استيلاء فجائياً ... قررت الحكومة الفرنسية
 أن تتخذ تدبيراً حاسماً في هذا الضار ، والتجأت إلى طريقة
 التجنيد . جندت عمال السكك الحديدية قبل يوم الإضراب ،
 وأمرتهم بتسيير القطارات بصفهم جنوداً وضباطاً . ومن المعلوم
 أن العامل حر في العمل أو الإضراب غير أنه يفقد هذه الحرية
 — بطبيعة الحال — عندما يصبح جندياً ... وبهذا التأثير
 استطاعت الحكومة أن تفسد على الاشتراكيين ترتيباتهم في هذا
 الباب وأن تحول دون تحقيق الإضراب العام الذي كانوا يستعدون له
 منذ مدة .

هذا التدبير سبب هياجاً عظيماً على الحكومة ، فأخذ المعارضون
 يقولون هذا إخلال بأحكام الدستور ، وإنه تعد على حق الحرية ...
 غير أن رئيس الحكومة رد على هذه الاعتراضات قائلاً : « إن
 العمل الذي قُت به لا يخالف الدستور ولا يكون تعدياً على حرية
 الأفراد . ومع هذا أود أن أصرح من على هذا المنبر بأنني لو

إن هذه الصفات الأخلاقية ، وهذه النزعات النفسية ، هذه
 الفردية المفرطة التي لا تفكر في شيء غير نفسها . والتي تتجنب
 الجهود المضيئة على اختلاف أنواعها ، فتحاول أن تنال أعظم
 حظ ممكن من اللذة ... والتي تؤثر نفسها على الدوام بالعاقبة
 واللذة ونعيم الحياة ... كل من ينعم النظر في هذه الصفات ،
 يضطر إلى التسليم مما بأنها تدل على شيء واحد ، هو « التفسخ
 الأخلاقي » وتؤدي بطبيعة الحال إلى نتيجة واحدة ، هي « الانحلال
 الاجتماعي » ...

غير أن الكاتب المحترم ، لا يقول بذلك ، بل بالعكس
 يرى في كل هذه الصفات والحالات أثراً من آثار التحضر
 والتثقف ، ونتيجة من نتائج الأمان في الحضارة والثقافة . إنه يملل
 كل واحدة منها بقوله : « إن الفرنسي قد تحضر وأمن
 في الحضارة » و « ومضت فرنسا في الحضارة إلى أقصى غاياتها »
 ويكرر ذلك مرات عديدة ، ويعتبر كل ذلك من نتائج « الحضارة
 والثقافة » الطبيعية ، حتى إنه يقول بكل صراحة ما يأتي .

« إن أية أمة من الأمم تبلغ من الثقافة ما بلغت فرنسا وتلك
 بالثقافة الطريق التي سلكتها فرنسا منتهية من غير شك إلى
 مثل ما انتهت إليه فرنسا ...

ويزيد على ذلك قائلاً . « نحن بين طريقين » إما أن نستقبل
 الثقافة أحراراً (يريد مثل ما تفعل فرنسا) وإما أن نستقبلها
 مقيدين (يريد مثل ما تفعل ألمانيا) كما يقول أخيراً « أما أنا
 فاختار الطريق الأول وأقبل أن أتعرض لما تتعرض له الأمم الحرة
 من ألوان الخير والشر ومن اختلاف الخطوب » ويعلل اختياره
 هذا بنزوعه إلى الحرية حيث يقول : « إن الحياة الحرة ... خليفة
 بأن نشترها بأغلى الأثمان » ...

أنا لا أستطيع أن أشارك الكاتب المحترم في آرائه هذه ...
 ولا أسلم بأن الأحوال والصفات التي ذكرها « نتيجة طبيعية »
 للأمان في الحضارة والثقافة ، كما لا أسلم بصحة رأيه في انحصار
 الأمر بين طريقين لا ثالث لهما ؛ غير أن حديثي قد طال
 ولكن من الضروري ألا أنهي حديثي دون أن أناقش
 الكاتب المحترم قليلاً في كلمته الأخيرة .

الاجتماعى جانباً ، فأخذ بقدس تلك الفردية ... هذا الجيل ... قد
أوصل فرنسا إلى هذه التكتبات ...
إننى أعتقد أن هذه النتيجة يجب أن تكون درساً لجميع

شبان العرب ...

فأنا أود أن يعرف الكل أن الحرية لم تكن غاية قائمة بنفسها ،
بل هى واسطة من وسائط الحياة العالية ... والمصالح الوطنية التى
تتطلب من المرء أحياناً تضحية الحرية أيضاً فى بعض الظروف ...
إن كل من لا يضحي بحريته الشخصية فى سبيل حرية أمته
— عند ما تقتضيه الحال — قد يفقد حريته الشخصية مع حرية
قومه ووطنه ...

وكل من لا يرضى أن (يفتى) نفسه فى الأمة التى ينتسب
إليها — فى بعض الأحوال — قد يضطر إلى « الفناء » فى أمة
من الأمم الأجنبية التى قد تستولى على وطنه فى يوم من الأيام ...
ولذلك فأنى أقول بلا تردد وعلى الدوام ...
الوطنية والقومية قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ...
حتى فوق الحرية ، وقبل الحرية ...

(س)

سلي والعبيط

وبحى

هى قصة اليوم

قصة النفس الحائرة

قصة الأدب الشق المعيد

قصة الحياة كما هى

قصة الضحك والبكاء

دار المعارف للطباعة والنشر فى ٢٧٢ صفحة

نمها ٢٥ قرشاً — تولى نشرها المؤلف

تطلب من : مكتبة المعارف ، والتهفة ، والانجلو ، والأهلية ،
والتجارية ، وغيرها .

للمؤلف : الياس عكاوى ١٧ شارع فؤاد الأول القاهرة
تليفون ٤٣٩٠٩

كنت أعلم بأنه مخالف للدستور ولحق الحرية .. لما أحججت عن
القيام به .. لأننى أعتقد أن حياة فرنسا أغلى من الدستور ،
وأتى من حرية الأفراد ...»

إن ساسة فرنسا الذين كانوا يحملون مثل هذا الاعتقاد قادوا
بلادهم إلى النصر فى الحرب العالمية النصرمة .. وأما رجال فرنسا
الجدد الذين فقدوا هذا الاعتقاد وصاروا يعتبرون هذه الأعمال
ضرباً من ضروب النازية ... فقد أوصلوا بلادهم إلى وادى
الاندحار ...

هذا وأذكر أنى حضرت رواية فى باريس قبيل الحرب
العالمية عنوانها (العرب) يصور فيها مؤلفها ضابطاً من كبار
ضباط البحرية الفرنسية يعيش مع راقصة مغربية تتحدر من
عشيرة مراكشية ، وللضابط أخ شاب مأخوذ بالآراء والنظريات
المعارضة للخدمة العسكرية . يفر هذا الشاب من الجندية ،
غير أن أخاه الضابط يتمكن — بعد سلسلة وقائع — من
إقناعه وإعادته إلى حظيرة الخدمة الوطنية . تقف المرأة المغربية
دهشة أمام خضوع الشاب لكلمات أخيه هذا الخضوع ،
فتسأل : ألم يكن هذا الشاب حراً ؟ فكيف يخضع لأوامر
الضابط كأنه كلب مطوق بالأغلال أو عبد يمتثل لأوامر سيده
الذى اشتراه بماله الخاص ؟؟

أما الضابط فيتسم لأقوال خليلته المغربية ، وعند ما يحتل
بها يقول لها ما مؤداه « إن الحرية فى نظرنا نحن الغربيين ،
هى غير الحرية التى تفهمونها وتطلبونها أنتم الشرقيين . الحرية فى
نظركم هى أن يرتدى المرء برنسه ويبتلى صهوة جواده فينطلق فى
الصحراء حيث شاء ... أما نحن فلا نطلب حرية مثل تلك
الحرية ، فإن كلاً منا يحمل فى عنقه أغلالاً وأصفاداً ... أغلالاً
وأصفاداً مصنوعة من ذهب معنوى ... من ذهب المنعمات
والتاريخ والواجبات ... نحن نحب تلك الأصفاد بكل جوانحنا ،
ونحمل تلك الأغلال بكل سرور ... نحن نبجل تلك الأصفاد
والأغلال ، بل نقديسها كل التقديس ...»

إن الجيل الذى يقول مثل هذه الأقوال قد قاد فرنسا إلى
المجد والنصر ، وإن الجيل الذى عبد عن تقديس الأغلال
الاجتماعية فأخذ يتمسك بالحرية المطلقه ... الجيل الذى ترك التساند